

جيل وجيل !

للأستاذ محمود البشبيشي

—

من الأجيال ما يطويه الزمن تبعاً لقانون الحياة ، ولكنه يطوى الزمن تبعاً لقانون الفكر ، فلا يذهب الزمن إلا بأهله ، ويذهب فكر أهله في الزمن كل مذهب ! والذي يطيل في عمر الأجيال برغم فنائها ، ويُقصر في عمرها وهي على قيد الحياة ، هو قوة الروح فيها ، وحيوية للفكرة في مجموع أفرادها ... هذا ما أوحاه إلى حديث بيني وبين ولدي « حسين » وهو شاب له نظره الخاصة في ترمه وشعره ، لا يترف بنظرة غيره إلا بمقدار ما فيها من صلات تربطها بفكره ويصدق المنطق والمقل ...

... تناقشنا ، فكنت أنا وحجبي أمثل جيلاً مضى ، أو أوشك أن يمضي ، يحاول أن يخرج ويُقنع ويُصلح جيلاً جديداً تجسم في نفس ولدي وفكره ... وكان هو مؤمناً كل الإيمان يُقوله ، وإذا وجد الإيمان تفتحت أكام الحياة وللثانية من تفور النجاح باسمه جيلاً ...

... وحاولت أن أفهمه أن للبقاء للقوى ، وأن الذي لا يحصن نفسه ، ولا يتخذ الأهبة لقاء للشور والأفراح مما لا يستطيع

إذا استطاع طلبة السنة للتوجيهية أن يتجحوا جميعاً في المسابقة بتفوق صرموق ، وأن يهزموا الدولة على قبولهم بكليات الجامعة المصرية بالبحران ، فيكون هذا التفوق غرة في تاريخ مصر الحديث

إن الدولة أمكتكم من ناصيتها المالية ، يا طلبة السنة التوجيهية ، فملموها كيف تهرب من التضرع لذكائكم الموروث ، فما كنتم ولن تكونوا إلا أزكى نبات في أخصب أرض ، وفي رعاية أصنى سماء

أنا معكم والله معنا ، ونحن بالصدق والزم أقوى من وزارة المعارف ومن الجامعة المصرية

وإلى الأسبوع المقبل في تشریح كتاب حافظ عفيفي باشا . فلكتابه مذاق خاص ، لأنه يقدم سوراً من أفق بعيد هو بلاد الإنجليز . زكى مبارك

أن يقف على قدميه طويلاً ، واضطرب أمام التنبؤ للمبار قبل المصافة للشديدة ، وجار عليه كل من اتصف بالقوة ومحصن بها ... شخص كهذا يقطع مسافة عمره كما يقطعها الحيوان والنبات ، لا يسلم من اعتداء القوى والضعيف ...

حاولت أن أفهمه هذا فقال : إذن فأنت ترى أن للبقاء للقوى ، وأن الذي لا يتصف بالقوة مثله كمثل النبات والحيوان للضعيف ، وظاهر قولك من حكمتك على للنبات بالضعف أن الإنسان يزرعه ليقلمه ! وهذا ما يحدث ... ولكني لأرى ضعف للنبات كما تراه أنت ضعفاً بمعناه الذي هو ضد القوة ، بل أراه قوة للبقاء في النبات ! فالقوة عندي ليست تلك التي يقع تحت صفاتها التخمير والجور والشدة ، وإنما هي قوة الروح فقط !

... وهذا للضعف في النبات هو أسمى درجات قوة الروح ، فأنت لا تقطع للنبات إلا بعد تمام اكتماله ، أي بعد تمام قوة الروح فيه ، فتحفيد منه بعد ذلك غذاء وبناء للأجسام ، وهذه الفائدة هي قوة الروح في للنبات ، فهو لا يقضي لضعفه ، وإنما ليكون حياة أخرى ويجدد بناء آخر ، للفضل فيه انبوة روحه الكامنة في عناصره ...

هكذا للنبات ، وفلسفة الطبيعة في للنبات ، بضعف ليخلق قوة ، ويقضي ليجدد حياة ... وليت الإنسان كذلك ...

— لقد أصبت في ذلك يا بني ، ولكن الذي يصلح للنبات قد لا يصلح للإنسان ، والذي تراه أنت فلسفة في طبيعة للنبات قد لا نتعرف به المقول البشرية — لا للضعف فيه — وإنما لأن هذه المقول قد اختلط بها من صفات الحياة الطبيعية للكثير ، فامتزج بها الطمع ، ودفعها إلى حب السيطرة على أشياء النير ، فكانت المداوة ، وكانت البغضاء ، وشعر الإنسان بأن لا أمان من جانب أخيه الإنسان ، وصار كل فرد إذا صادق ونسج ثوب الوقاء ، نسج بجواره ثوب الزياء ؛ وإذا أخذ المدة الحسن اللقاء ، أخذ الأهبة لدواعي الفراق ، فاضطربت الحياة ... لهذه الأسباب يصعب تطبيق فكرتك على حياة الإنسان ، ويصدق منطقها في حياة للنبات ، لأن الطبيعة عادة في تصرفاتها ، فلم تر نباتاً اعتدى على نبات ، فظهر في زمن نبات آخر . كل شيء يسير في الطبيعة وفي منطقته عدل وحكمة ، فللمح ميماد ، وللفطن ميماد ، ولا يصلح الأول في زمن الثاني . وهكذا سائر للنبات ... فهل الإنسانية كذلك ؟ لو كانت كذلك ما اشتملت يا بني

قد فسدت قرأى للشرور فضائل ١١

وما هذه الحرب للضروس غير صورة لفساد تأمله . . . لقد صبغت الحرب يا بني كل شيء في الحياة بصبغة سوداء ، ظاهرها الخوف وباطنها الموت والدمار ، فدعنا من فلسفة تقودنا إليها ، وعرج بنا على ناحية أخرى . . . فقد عرفت منك أن للتأمل أساس الحياة ، وأن هناك تأملاً في غاية الحياة ومثلها ، وتأملاً في الخلاص من غاية الحياة ومثلها وتبماها ، وأن الجيل يفسد بفساد تأمله ، كما قلت لي إن للقوة هي قوة الروح ، وإن الضعف والفناء قد يكونان قوة سامية مادام للضعف بولد قوة ، والفناء يجدد حياة . . . عرفت كل هذا فأحسست أن الجيل الحديث — متجسماً في روحك وفكرك — يختلف كل الاختلاف عن جيلنا الذي ذهب بعضه وبقي بعضه ا وأدركت أن الأجيال تناثر بالفكرة التي تتولد فيها وتمتاز بها ، ولكني لا أزال أشعر بامتياز جيلنا بالقوة والهيبة والشهامة . . . أحس فيه الهيبة الفطرية التي تتجلى في رهبة الابن لوالده والتلميذ لأستاذه ، وكل للناس أمام رجل الدين . ولا زلت أشعر بامتيازهم بجمعة المارفين والدارك وقوة للضبر والمجاهدة . ولعل الدكتور زكي مبارك على حق في ثورته على شباب الأدب اليوم ، وقلة صبرهم واضطلاعهم . . .

فقال : هذا حديث آخر أحب أن أطلعك على خواطري فيه ، فهنا خزان ماء صناعي يُزود بالماء في كل وقت ، وهناك نبع سيال له من طبيعته مدد لا ينقطع ، فأيهما تراه أنفع وأفضل ؟ إن الأدياء كذلك : فيهم من استفاد علمه وأدبه من كثرة الاطلاع ، فهو مقيد بالفاظ محفوظة ، وأفكار مسبوقه ، وإذا جاء منه الجديد جاء بمد عناء . وفيهم من فطر على دقة الحس وسهولة الطبع ، فهو ينرف من بحر متناوج بين وجدانه وعقله . كل أفكاره جديدة لأن ضموره الفطري يتجدد ، ومن هؤلاء الفلاسفة من للشعراء والكتّاب ، وقد يكون بعض الشباب اليوم من النوع الثاني — هذا حق يا ولدي ، ولكنك لا تستطيع إنكار فضل الكثير مقاً ، فقد كشفنا لكم ظلمة الطريق وقدنا الثقافة وسط تيارات من الشدة والظلم ، حتى وصلنا بكم إلى النور ، وحتى استطاع الابن منكم أن يجادل الوالد ويناقشه واضطر الوالد أن يقبل منه النقد لأنه هو الذي هداه إلى سبيله !

— حقاً أنا وغيري لا نستطيع إنكار قدرة الأستاذ الزيات على حسن الصياغة ودقة المعنى وعمق الفكرة ، وسهولة الدكتور

اليوم للذيران ، واضطرب ميزان الحياة ، وذهبت الرحمة من للقلوب فقال : ليس معنى هذا أن للفكرة غير صائبة ، وأن فلسفة الطبيعة فيها نقص ، بل لعل ذلك ينبت ضلال الإنسانية وتحكم شهواتها في ميولها وتزعانها للفكرية

— هذا حق يا بني ، ولكن ما فرط للناس في أمور دنياهم والإنسانية والروابط الدينية ، إلا منذ أن فرطوا في شخصيتهم وأخلاقهم ، فأصبحوا لا يحكمهم شعور حي ، ولا يفيد شعورهم رحمة ، وساء تقديرهم الأشياء ، فصدوا للكم ، وابتعدوا عن الكيف ، ونشأ فيهم اختلاف للطبقات ، فقد تزوا الفنى بالمال ، والفقر بقلته ، ما أبعد القوم عن الصواب . . . ما أبدم !

ورب فقير له من عزبة نفسه ثروة تسجد أمامها جبابرة للستين . . . ورب فنى تمر به الأيام كما تمر على الجراد لا تشعر به لأنه فقير الروح !

— أنت ترى يا ولدي أن سبب انحمار الإنسانية هو للتفريط في أمور الدنيا والدين . . . وأنا أرى أن السبب هو فساد للتأمل في أفرادها واختلاطه بحب الدات ، فأصبح الإنسان لا يرى الشيء حسناً إلا إذا كان له نصيب من حسنه . . . ولكن هناك تأملات تقية وتأملات ساقطة . . . وأكبر اللزن أن سر اضطراب الإنسانية اليوم هو تنلب للتأملات للساقطة التي غلب عليها حب الدات . . . ولا بد للحياة من تأمل . . . إما في غاية الحياة ومثلها للعليا الإنسانية ، وإما في الخلاص من قيود الحياة ومثلها الإنسانية للعليا . وفرق بين التأمل الأول والتأمل الثاني يصل بك الأول إلى اللناية — إذا صدقت فيه — ولم تأخذ في ظنون الأمور بيقينها . . . وهذا النوع كان موجوداً في أيام طفرة الإسلام الأولى ، أيام كان تأمل الرسول الكريم يتخلل في المسلمين جميعاً . . . ما أحوج الإنسانية اليوم إلى هذا التأمل ، فإنه إذا وجد في أمة يمت فيها روحاً يجعلها لا تنصل بين شريها ومجاهدها للصادق إلا بمقدار ما يصالح للتاني من أمر الأول ، ولا تحت على جوار النقائض إلا بمقدار ما يشمر الحسن للقبیح بأن فيه قبعاً !

— إذن أنت ترى يا بني أن الإنسانية اليوم تأملت ، ولكن في الخلاص من قيود الحياة وثقل مثلها الإنسانية وتبماها . . . هذا حق يا بني ، فإن الفضائل اليوم أصبحت قيود الحياة ، لأن الإنسان قد غرق في للشهوات وحب الدات ، ولأن نفسه